مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 03 (2022م) • ص ص 09 – 42
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

الفطرة وأثرها، بين البناء القرآني ومعاول الهدم

Innate Disposition and its Impact: A Comparison between Quranic Construction and Demolition Shovels

د/ رضوان بن إبراهيم لخشين*
مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة (الجزائر)
redlek21@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/19 | تاريخ القبول: 2022/10/12 | تاريخ النشر: 2022/11/12

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: الحمد لله أولا وآخرا، وبعد: بحثنا هذا يعرض موضوعا مهما هو موضوع الفطرة من حيث تعريفها لغة وشرعا، وبيان جملة من مسائلها، فالفطرة هي الخلقة والجبلة الأولى التي جعل الله سبحانه الخليقة عليها، دينا وبدنا، وخِلقة وخُلقا، عمَّ الله سبحانه بها الناس عامة، فجعلهم عليها، بها يولدون، وفي بواطنهم مستقرها، ثم جاءت الشرائع الدينية جميعها، والملة الإسلامية بخصوصها، جاءت لبيان تلك الفطرة وبنائها وتشريع ما يحفظها ويناسبها، فكان في القرآن الكريم ما يهدي الفطرة إلى بناء أركانها وتزيين جوانبها، وتجميل جنباتها، حفاظا عليها وضمان لبقائها، تحقيقا لأركان عمارة الأرض من البقاء والعبادة، فمهما استمرت النفوس على هدي القرآن بقيت لها سلامة فطرتها، ودون ذلك وغيره إنما هو معول هدم لها، معاول بأيدي المفسدين وفي مقدمهم الشيطان اللعين، فوضح البحث كيف بنى القرآن الكريم الفطرة، وكملها وحفظها، ووضح مختلف مظاهر فسادها.

الكلمات المفتاحية: الفطرة؛ الجبلة؛ هدم الفطرة؛ القرآن والفطرة.

Abstract : Praise be to Allah first and last, and then: Our research presents an important topic which is the innate disposition (*Fitra*) in terms of its linguistics and religious definition, then clarifying a number of its matters. It is the creation and the first nature on which Allah the Almighty made creation, religiously and physically. Allah Almighty creates it for people in general, and made them on it, with which they are born, then all the religions, mainly the Islam came to clarify, build and legislate what preserves and suits it. So in the Holy Quran we found what guides the human predisposition to build its corners, decorating its angles, and beautifying its sides, in order to preserve it and ensure its survival, to achieve the pillars of the reconstruction of all humanity on earth, their survival and worship. no matter how long souls continue to be guided by the Qur'an, they remain safe in their innate disposition, and without that and others it is a demolition for them, as a shovels in the hands of the corrupters, led by the damned Satan. This research clarified how the Holy Qur'an built, perfected and preserved the innate disposition, and also clarified the various manifestations of its corruption.

Keywords*:* innate disposition; human nature; demolition of human predisposition; Qur'an and human predisposition.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، أحسن كل شيء خلقه، وعلى السلامة فطره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمر ونهى، وشرع وقضى فأقرت بجميع ذلك الفطر، وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله، مَن الفطرة من دينه وملته، وهي فيه وفي أمته ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فإن موضوع الفطرة البشرية، والجبلة الربانية، والكلام فيها لمن المواضيع المهمة، ذلكم أنها الحال السوية التي تكون عليها النفوس البشرية، وهي الحال التي تنسجم مع الشرائع الربانية التي ترد عليها، فالله الخالق العظيم هو المشرع الحكيم، وهو الأعلم بخلقه وما يصلحهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]. ولا يخفى على كل ناظر ما نحن نراه اليوم من فساد عريض عظيم، جاوز كل الحدود الشرعية، والعقلية والفطرية، بما يجعل المرء يتساءل عن أسباب ذلك، ليجد نفسه أمام أسباب كثيرة أهمها: هي تلك الفطرة البشرية التي أودعت النفوسَ فكانت معدن التمييز بين الصواب والخطأ، ولما كانت الشريعة الإسلامية شريعة الحق والصدق، والصواب والعدل، تلك التي اعتنت بكافة جوانب الإنسان ومركِّباته، سيسأل الواحد منا نفسه عن مدى اهتمام الشريعة الإسلامية بموضوع الفطرة، وبنائها لها وتكوينها لها التكوين السليم، ليأتي هذا البحث المتواضع محاولة في الجواب عن ذلك التساؤل.

إن موضوع الفطرة بهذا الاستشكال والتوصيف الموجز لمن الموضوعات المهمة جدا، ذلك:

* أنه الصبغة الربانية والخلقة السوية التي فطر الله سبحانه الناس عليها، فاحتاجت تلك النفوس التي ماجت ومادت بها الحياة أن تعرف أصلها وفطرتها. ليسهل عليها الرجوع إليها.

* كما أن تلك الخلقة السوية تتكامل، وتنسجم مع الشرائع الربانية فاحتاجت النفوس الصادقة معرفتها والسير عليها، والتخلق بها، لترى كمال الشريعة الملائم لها، فترى عين اليقين حكمة ربها وباريها.

* ويزداد الموضوع أهمية حينها نرى حجم الخطر الذي يعتري النفوس البشرية حينما تحيد عن فطرتها، والأثر السيئ عليها فردا وجماعات.

* كما يزاد أهمية وخطورة في الوقت نفسه إذا علمنا أن عدواة الشيطان لبني الإنسان قد كانت في أمور عدة من أعظمها عداوته لفطرتهم، فهو الساعي إلى إفسادها لـمَّا كان في إفسادها تحقيق لفساد عريض عظيم.

فهذا الموضوع بما ذكرنا من شيء من أهميته لطال ما للمضجع أرق، وللذهن أقلق، ورغم تلك الأهمية البالغة، والرغبة الصادقة للاعتناء به توصيفا، ورقن بعض الخواطر فيها كتابة وتأليفا، رغم ذلك وغيره لم يجر البنان بالبيان إلا بشيء من التكلف - استحياء وقلقا- لخطورة الموضوع أن يكتب فيه من لم يتحقق بسلامة الفطرة، ولا يقل عنه خطرا من تحقق ببعضها، فما يخشى من مُدَّعى الطب أكثر مما يخشى من جاهل به، فرب مريض آل إلى الشفاء، ورب سليم هلك بوصْفة سوء دواء.

ثم استروحت النفس لما رأت الضرورة في ذلك، فعناء الصدر تخففه الزفرات، والفم المكمم يستروح بالإشارات والأنَّات، كما أن المتتعتع في الحديث خير من الأخرس، ورب جاهل أثار بجهله خاطرة الفقيه، فأفلحا جميعا، سببا ومسببا، ثم زاد استرواحها لما علمت من نصْح القارئين، وحسن ظنهم بالكاتبين، والله الموفق، وهو المعين، ولكي يتفق موضوع البحث – الفطرة – مع مقصَده، من إلقاء الضوء على أثر انتكاسة الفطرة المعاصرة، وما آل بها الحال إلى مظاهر مشوهة، أسهمت فيها معاول الشيطان، وإخوانه من بني الإنسان، لأجل ذلك كله رأيت أن أعنون البحث بـ: "الفطرة وأثرها بين البناء القرآني ومعاول الهدم"، ويلحظ القارئ أن العنوان لم يقيد الفطرة بوصْف السلامة، وذلك لما كان أصْلا فيها، وغير خارج عن ماهيتها، فما الفطرة إلا السليمة منها، وإن وصِفت بذلك فهو للكشف لا للتقييد. كما رأيت أن تكون خطة عرض البحث منتظِمة على النسق الآتي:

1. مقدمة
2. الفطرة في اللغة والشريعة.
3. بناء القرآن الكريم للفطرة، وأثرها في حياة المسلم.
4. تغير الفطرة خطورته، وأهم صوره.
5. طرائق علاج الفطرة، وحفظها.
6. الخاتمة.
7. كشاف المصَادر والمراجع.

وقد سرت في بحثي على نسق جامع بين التفسير الموضوعي والحديث الموضوعي، لاقتضاء المقام جمع أدلته من الكتاب والسنة مبينا معانيها، ومسائلها من خلال تحليلها، مستعينا بكلام أهل العلم فيها، وقد غلب على أكثر فقرات البحث الجانب الوصفي الكاشف عن معاني ما تحته، بحسب مقتضيات البحث ومتطلبات البيان.

2. الفطرة في اللغة، والشريعة.

إن مما يقتضيه حسن العرض وتمام البيان قبل الخوض في مباحث هذه الدراسة، أن نقدم ببعض المقدمات الموطئة والممهدة، وآكد ذلك ذكرا وبيانا، الكلام في مدلول الفطرة لغة وشرعا، فأقول:

جاء في أمات كتب اللغة العربية ما هذا ملخصه: قال الخليل رحمه الله (ت 170هـ): «وفَطَر اللهُ الخَلْق، أي: خَلَقَهم، وابتدأَ صَنْعة الأشياء، وهو فاطرُ السّماواتِ والأرض. والفِطرة: التي طُبِعَتْ عليها الخليقة من الدّين[1].... وانفطر الثَّوْب وتفطَّر، أي: انشقّ. وتَفَطَّرتِ الجبالُ والأرض: انصدعت. وتفطرت يده، أي: تَشَقَّقَت. وفَطَرْتُ إِصْبَعَهُ، أي: ضربتها وغمزتها فانفطرتْ دماً، ...»[2]، فأصلها كأنه دائر بين معنيين:

الأول: من الشق والتقطع[3]، قال ابن فارس رحمه الله (ت 395هـ): «الْفَاءُ وَالطَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ

يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وَإِبْرَازِهِ»[4].

والثاني: من ابتداع الأمر وخلقه وابتداء اختراعه أول مرة[5].

كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «مَا كُنْتُ أَدْرِي ما ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، حَتَّى احْتَكم إِلَيَّ أعْرابِيَّان فِي بِئر، فَقَالَ أَحَدُهما: أَنَا فَطَرْتُها أَيِ ابْتَدَأْتُ حَفْرها»[6]. وأرجع المعنى الثاني إلى الأول بعض أهل اللغة كالزجاج (ت 311هـ)[7]، وغيره.

وأما ما ورد في القرآن والسنة من هذا الأصل فلم يخرج عن هذين المعنيين:

فأما ما في القرآن الكريم فورد من أصل (ف ط ر) (11) أحد عشر اشتقاقا: منها (فاطر، فَطَر، فِطْرَة، فَطَرني، فَطَرنا، فَطَرَهُن، فَطَركم) جاءت في قوله تعالى:﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:14، إبراهيم:10، فاطر:1]، و﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف:101، الزمر:46]، و﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الشورى:11]. أي خالقهن والذي ابتدأ إنشاءهن على غير مثال[8].

﴿ فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام:79]، و﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾[الروم:30]، و﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِيۚ﴾ [هود:51، يس:22، الزخرف:27]، و﴿ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾[الإسراء:51]، و﴿ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ ﴾ [طه:72]، و﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾[الأنبياء:56]، أي الذي خلق السماوات والأرض، وخلق من عليها من البشر[9].

وما بقي من اشتقاقات مادة (ف ط ر) هي: (انفطرت، يَتَفَطرن، منفطر، فُطُور)، وهي في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾ [الانفطار]. أي انشقت[10] وتصدعت، كما في الآية الأخرى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾[الانشقاق]، ومثله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ [مريم:90، الشورى:5][11] أي يتقطعن، ويتشققن، ولذا قال في وصف الأرض بعدها: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ ﴾ [مريم:90]، ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمل:17] أي متشققة، ومتصدعة في ذلك اليوم من هوله وعظمته[12]. وآخر ما هنالك قوله تعالى: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك] أي هل ترى في خلق الله سبحانه من تشقق أو تصدع أو خلل[13].

والمتأمل لهذه الآيات يلحظ اقتران فطر الأشياء وخلقها بالعظيم من مخلوقات الله تعالى، كالسماوات والأرض، وخلق الإنسان أول مرة، وكذا اقتران التشقق والانفطار بالسماوات والأرض، وهو ما يشير إلى استعمال مادة (فطر) فيما عظم شأنه، وعلا أمره، فحال الفطرة - موضوع البحث - من ذلك، عظيم شأنها، خطير أمرها، جليل أثرها على الفرد والمجتمع، ولما كان هذا بعض شأنها فقد أولتها الشريعة الإسلامية العناية اللائقة والفائقة كما سيأتي.

وأما ما ورد في السنة النبوية من هذا الأصل فهو كثير جدا، غير أن الذي يهمنا في بحثنا هذا جملة من

الأحاديث أذكرها، مع تخريجها تخريجا مختصرا، فيما يلي:

أولها: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟» ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةَ[14].

ثانيها: ما جاء في حديث «وأَمَّا الرَّجُلُ الطَوِيل الذي فِي الرَّوضَةِ فَإِنَّه إِبرَاهِيمُ ﷺ، وأَمَّا الوِلدَانُ الذين حولَه فَكُلَّ مَولُودٍ مَاتَ عَلى الفِطْرَة »[15].

ثالثها: قوله ﷺ: «لاَ تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الفِطْرَةِ مَا لَمْ يُؤَخِّرُوا الْمَغرِبَ إِلى أَن تَشْتَبِك النُّجُوم»[16].

رابعها: قوله ﷺ: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلاَمِكَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ، مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ»[17].

خامسها: أن رسول الله ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَى الْفِطْرَةِ»، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ»[18].

سادسها: قوله ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ :الْخِتَانُ، وَالاِسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»[19].

سابعها: قوله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج الطويل: «... ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ ...»[20].

وثمة غيرها من النصوص النبوية كثير[21]، يلحظ فيها المتأمل:

* ورود الفطرة على مدلول عام متعلق بعموم الناس، من سائر الأمم المتقدمة والمتأخرة، كما في الحديثين الأولين.

*ويلحظ في الأحاديث الأخرى تعلق الفطرة بأقوال، وأفعال، وأطعمة، وغيرها، وبعد تحديدنا لمفهوم الفطرة في الشريعة الإسلامية، لنا رجوع إلى هذا المعنى.

إن تحديد المعنى الشرعي للفطرة يقتضي وقوفا على مختلف النصوص القرآنية والنبوية التي وردت فيها هذه اللفظة ومرادفاتها، تتبعا، وتأملا، واستنباطا، وهو ما يتطلب بحثا مستقلا يخرج كلامنا هنا عن مقصوده، لذا سأقتصر هنا على ذكر خلاصة لمفهوم الفطرة توضيحا للمراد وتوطئة بين يدي المباحث الآتية، فأقول:

اختلفت أقوال العلماء، اختلافا واسعا في تحديد معنى الفطرة، وحاصل أقوالهم في ذلك:

أنّ الفطرة هي الميثاق والعهد الذي أخذه الله من ذرية آدم وهم في عالم الذر[22]، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف].

وقيل الفطرة دين الله الإسلام، وهو القول المعروف عند عامة السلف من أهل العلم والمفسرين[23].

وقيل الفطرة السنة[24].

وقيل الفطرة هي الخِلقة التي خلقَ الله الخلقَ عليها مهيأة لقبول الحق والدين، كما خلق أسماعهم وأبصارهم مهيأة للسمع والإبصار متى بقيت آلة ذلك سليمة[25]. وليكن منطلق كلامنا من هذا القول الأخير، الذي اختاره جمع من المحققين: كالخطابي (ت 388هـ)، وابن عبد البر (ت 463هـ)، وابن عطية (ت 542هـ)، والقرطبي (ت 671هـ)، وغيرهم. فإذا قُرِن هذا القول بما عُلِم شرعا من أنَّ القلوب هي محل الإدراك والعقل[26]، وأن سلامة مضغة القلب سلامة للبدن والجسد جميعا[27]، أمكننا بعد ذلك -إن شاء الله- الجمع بين تلك الأقوال في ائتلاف من غير اختلاف، على الوجه الآتي:

لما كانت الفطرة هي سلامة القلوب، وحسن خلق الله لها، وكمال تهيئها، وما أودعه فيها من معرفة الحق وقبوله، وإنكار الباطل ورده، وكان من مظاهر تلك السلامة، وذلك التهيؤ لقبول الحق أن اعترفت القلوب بالله سبحانه ربا إذ أشهدهم على أنفسهم بذلك، فكان هذا الإشهاد بعد ذلك الإقرار نابعا من الفطرة التي فطر الله عليها قلوب بني آدم، المفطورة على الإيمان بالله الحق وربوبيته، وملكه، وتدبيره، وكان هذا الإيمان الفطري دليلا واضحا على استحقاق الله للعبادة دون سواه، وقد أشارت إلى هذا المعنى الكثير من آي الذكر الحكيم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس]، والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصر، تتضمن التذكير بأن الرب الخالق المالك المدبر هو المستحق للعبادة[28].

ثم إن الفطرة الربانية على مر التاريخ والزمان ما كانت لتقبل من الأديان إلا ما كان حقا وصوابا، وإلا ما كان مقبولا عند الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:19]، وقال:﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران]، إنه دين الإسلام، دين الاستسلام لله بالتوحيد والإيمان، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله وشُعبه، دين جميع الأنبياء والمرسلين، دين إبراهيم الخليل وذريته، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران]، وقال:﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾[البقرة]، ودين كليمه موسى:﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس]، ودين سليمان حين قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النمل]، وقال سبحانه: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النمل]، ودين عيسى عليه والسلام، وأتباعه من الحواريين، قال رب العالمين: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة]، وهو دين خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وما ارتضاه الله دينا للعالمين.

فقول من قال: الفطرة هي الإسلام، فعلى معنى الإسلام العام الذي هو دين الأنبياء جميعا، فكل مولود يولد مهيأ لقبوله، إذ هو الحق الذي تقبله الفطرة، وعليه يحمل حديث: «... وأَمَّا الوِلدَانُ الذين حَولَه فَكُلَّ مَولُودٍ مَاتَ عَلى الفِطْرَة»، وقد مات أولاد الناس قبل بعثته ﷺ، بل مذ خلقوا وجعلوا في الأرض يخلف بعضهم بعضا.

فالفطرة هي الإسلام، أي الإسلام الذي كان عليه موسى عليه السلام بما جاء به من التوراة، ثم لما حرِّفت التوراة، أرسل الله عيسى عليه السلام، فكان على الإسلام بما معه من الإنجيل، فلما حرِّفت الإنجيل، أرسل الله محمدا الأمين وسيد الخلق أجمعين، بالإسلام رحمة للعالمين، فكل مولود يولد على الفطرة المهيأة لقبول الحق والإسلام الذي كان في زمنه، وبعد تحريف الأديان، ونسخ الإسلام المحمدي لها، وهيمنته عليها، كانت فطرة كل مولود قابلة له مُسْلِمة إليه، ومُسلِّمة به. فالفطرة التي هي الإسلام، من لازمها أن لا تقبل إلا الإسلام دينا وشرعا ومنهاجا.

وأما قول من قال: الفطرة هي السنة، فقصده سنة الأنبياء والمرسلين، وطريقتهم وهديهم، في أحوالهم الظاهرة والباطنة، وما أمرنا بالاقتداء بهم فيه قال سبحانه:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:90]، وأكيد أن سنتهم عليه السلام نابعة من قلوبهم العامرة بالفطرة النقية، الصافية التي ظهرت آثارها في خِلقَتهم، وأخلاقهم.

ولعل في هذا التقرير ما يقارب بين تلك الأقوال، وينفي التعارض بينها، ويجمع شمل معانيها على الاتفاق، ويخرِّج شتات ألفاظها على التنوع لا على الافتراق، فالجميع أرادوا معنى الفطرة التي هي الخلقة

المهيأة لقبول الحق، إلا أن بعضهم عبر عنها ببعض أفرادها، والبعض عبر عنها باللازم عنها، أو بآثارها. وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ) رحمه الله إلى معنى هذا الجمع حين قال: «فَالصَّوَابُ أَنَّهَا فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَهِيَ فِطْرَةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[الأعراف]. وَهِيَ السَّلامَةُ مِنْ الاعْتِقَادَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْقَبُولُ لِلْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ. فَإِنَّ حَقِيقَةَ "الْإِسْلَامِ" أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلَّهِ؛ لا لِغَيْرِهِ وَهُوَ مَعْنَى لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلَ ذَلِكَ فَقَالَ: «كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» بَيَّنَ أَنَّ سَلَامَةَ الْقَلْبِ مِنْ النَّقْصِ كَسَلَامَةِ الْبَدَنِ وَأَنَّ الْعَيْبَ حَادِثٌ طَارِئٌ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يُرْوَى عَنْ اللَّهِ: «إنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ...»... وَمَثَلُ الْفِطْرَةِ مَعَ الْحَقِّ: مَثَلُ ضَوْءِ الْعَيْنِ مَعَ الشَّمْسِ وَكُلُّ ذِي عَيْنٍ لَوْ تُرِكَ بِغَيْرِ حِجَابٍ لَرَأَى الشَّمْسَ وَالِاعْتِقَادَاتِ الْبَاطِلَةَ الْعَارِضَةَ مَنْ تَهَوَّدَ وَتَنَصَّرَ وَتَمَجَّسَ: مَثَلُ حِجَابٍ يَحُولُ بَيْنَ الْبَصَرِ وَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا كُلُّ ذِي حِسٍّ سَلِيمٍ يُحِبُّ الْحُلْوَ إلَّا أَنْ يَعْرِضَ فِي الطَّبِيعَةِ فَسَادٌ يُحَرِّفُهُ حَتَّى يُجْعَلَ الْحُلْوُ فِي فَمِهِ مُرًّا. وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمْ مَوْلُودِينَ عَلَى الْفِطْرَةِ أَنْ يَكُونُوا حِينَ الْوِلَادَةِ مُعْتَقِدِينَ لِلْإِسْلَامِ بِالْفِعْلِ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَنَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِنَا لَا نَعْلَمُ شَيْئًا وَلَكِنْ سَلَامَةُ الْقَلْبِ وَقَبُولُهُ وَإِرَادَتُهُ لِلْحَقِّ: الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ بِحَيْثُ لَوْ تُرِكَ مِنْ غَيْرِ مُغَيِّرٍ لَمَا كَانَ إلَّا مُسْلِمًا. وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الْعِلْمِيَّةُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي بِذَاتِهَا الْإِسْلَامَ مَا لَمْ يَمْنَعْهَا مَانِعٌ: هِيَ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.»[29]، والله أعلم.

3. بناء القرآن الكريم للفطرة، وأثرها في حياة المسلم.

إن من معاني الفطرة السابق ذكرها أنها الإنشاء الأول، والخلقة الأولى، مما يتعلق بالأجساد والأبدان، فقد خلق الله آدم وذريته في أحسن تقويم، وجعل نسلهم توالدا من ماء مهين، آيات للمتأملين، وبرهانا للمنكرين، يقول رب العالمين: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون]، فتمت فطرته في الأبدان والأجساد، وسيأتي لهذا مزيد بيان.

ومن معاني الفطرة أيضا ما جبل عليه بنو آدم، في أول خلقهم وإنشائهم، مما يتعلق بالطباع، والميول، والأخلاق، وهي فطر الأرواح، فإن الله سبحانه لما خلق الخلق للاستخلاف والعمارة كونا وقدرا، وابتلاهم بعبادته فيها شرعا ودينا، أودع فطرهم من الخصال، والأحوال الفردية والجماعية ما هو كفيل بترسيخ واستمرار ركني العمارة والعبادة، يقول ربنا جل وعلا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف]، فلله الخلق كله، والكون كله خلقه، وله سبحانه الأمر كله، شرعيُه وكونيُه[30]، وقال في العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك].

ثم كان من عظيم مقتضيات ركن العبادة، مما يتعلق بفطر القلوب والأرواح ما هو كفيل بمعرفة الحق واتباعه، وترك الباطل واجتنابه[31]، فجُعِل فيها، وفطرت عليه، كالإيمان بالله الواحد ربا وخالقا، حاكما ومشرعا، والإيمان بالرسل، وإدراك الفضائل وتمثُّلها، كالكرم والوفاء والعدل ونحوها، ونبذ الرذائل

وتركها، كالظلم، والخيانة، والبخل، ونحوها.

وكان أيضا من عظيم مقتضيات ركني الاستخلاف والعمارة مما يتعلق بفطر الأبدان ما هو كفيل ببقاء البشرية في أبدانها وأجسادها، فجعل الله سبحانه فيها فطرة الأكل، والشرب، والتوالد، واللباس، والنوم والاستيقاظ، والاكتساب، وتبادل المنافع، ونحوها مما يتبعها ويترتب عنها، كحب التملك، والشهوة، والميل إلى الجنس الآخر، ونحوها.

فجمع الله لابن آدم تمام فطرة الأبدان، وكمال فطرة القلوب والأرواح، وحسن التقويم الظاهر والباطن، وجماله الداخلي والخارجي، فاستحق التفضيل على سائر المخلوقات الأرضية، قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء].

ثم لأجل كمال الاستخلاف والعمارة بما يحققهما في ظل كمال العبادة، أرسل سبحانه أنبياءه ورسله، وأنزل شريعة تتفق مع الفطرة غاية الاتفاق، تُحيِيها وتُكمِّلها، وفيها ما هو كفيل بضبطها، وتنظيمها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك]، فالنفوس بما رُكِّب فيها من فطرة العمارة هي مإنة وقوع التنافس والتظالم بينها، فجعل الله سبحانه الشرائع والأديان حكما عدلا، وميزانا قسطا في تلك الأمور.

هذا، وإن المتأمل في النصوص القرآنية ليراها تقرر بوضوح، وقوة حقيقة الفطرة بأنواعها، أصولها وفروعها، وظاهرها وباطنها، فمن شأن الفطرة أن تدرك الحق والمعروف إجمالا، فتأتي الشريعة مُقِرَّةً به، ومُقرِّرةً لإجماله، ومرشدةً لتفصيله[32]، فكان الوحي بذلك مصدر الفطرة، وقُوتها وغذائها، ومُعينَها، ومُرشدَها وهاديَها.

يقول ابن القيم رحمه الله (ت 751هـ): «وهكذا المؤمن، قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته، فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته، فيكون نورا على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة»[33]. وما بعثت الرسل، وشرعت الشرائع إلا لتصحيح الفطرة وتكلميلها[34]. فاقتضى ذلك الوقوف على بعض النصوص الشرعية، وخاصة القرآنية، لنرى اهتمام الشارع الحكيم ببناء الفطرة وتكميلها وتحسينها، وحفظها وصيانتها عما يضادها.

ثم إن تتبع جميع ما في القرآن الكريم من الآيات الدالة على الفطرة بنوعيها: (فطرة القلوب، وفطرة الأبدان)[35]، والمقررة لها، والآمرة بها، والناهية عن ضدها، جمع كل ذلك من العسر بمكان، ويحتاج إلى بحث خاص، تضيق عنه هذه الصفحات، وحسبي فيما يلي أن أشير إلى أصول ذلك، ومعالمه الكبرى، مما يندرج غيره تحته، فأقول:

3.1. أولا: القرآن وفطر القلوب والأرواح.

3.1.1. القرآن وفطرة الإيمان بالله تعالى.

فطر الله سبحانه قلوب خلقه على الإيمان بوجوده، وعبادته، وحبه، والتذلل إليه، «فطرهم جميعا على أن يعلموا أن لهم خالقا ومدبّرا »[36]، وتنوعت دلائل ذلك في آي الذكر الحكيم يقول ربنا جل وعلا مرشدا الفطرة إلى الإيمان به ربا متفردا بالخلق: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور]، ولما انتفت جميع تلك الاحتمالات بقي الاحتمال الوحيد الذي استقر في فطر النفوس لما أُشهِدت على وحدانية الله وربوبيته فأقرت، وأُخِذ عليها الميثاق بذلك، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]، وهو الميثاق الذي ذكَّرت به الرسل أقوامها إلزاما لهم بعبادة الله وحده لما كان هو المتفرد بالخلق والإيجاد، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان]، وهو من معاني قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

3.1.2. القرآن وفطرة التعبد والتذلل[37].

إن من لازم ما فطرت عليه القلوب من تعظيم الله وإجلاله، أن تتذلل إليه، وتتألَّه له، وتعبده وحده لا شريك له، وتخضع له، وتتضرع إليه، وهو ما شهدت به فطر البشرية جميعا بلسان حالها لما اتجهت إلى العبادة، والتذلل إلى الآلهة الباطلة على مر العصور، والأزمان، فجاء القرآن الكريم بإرشادها إلى صوابها، وإرجاعها إلى أصلها، ألا وهو التذلل لله ربها وخالقها، والتعبد له، والخضوع له، يقول ربنا جل وعلا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، وهي رسالة الأنبياء جميعا، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:36]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، فما أرسلت الرسل إلا ليَتذلَّل الخلقُ لربهم بالطاعة ويقصدوه بالحاجة، ويتضرعوا إليه، محبة وتعظيما، قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف]. أي «ادعوا أيها الناس، ربكم مستكينين له، مخلصين متخشعين»[38]، معترفين مظهرين ذل

أنفسكم لله الواحد القهار[39]، ولذا نهى ربنا عما يقابل ذلك من الاستكبار عن عبادته، والاستكبار عن آياته ورسله، وما يترتب عنه من السخرية والاستهزاء، ونحو ذلك، والآيات في هذا كثيرة، جميعها شاهدة بتوطيد القرآن الكريم لفطرة التعبد والتذلل لله الواحد. ذلك الذل الذي أورث القلوب خوفا منه سبحانه ورهبا، وإجلالا، وتعظيما، وأورثها أيضا محبة، وطمعا، ورغبة فيما عنده، فتبارك الله أحسن الخالقين.

كما أن من صور ذلك التذلل أيضا ما شرعه الله تعالى من العبادات الكثيرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وسائر أنواع العبادات البدنية والمالية، فما شرعت إلا إظهارا لذل العبيد إلى السيد العظيم بالطاعة والامتثال، يقول ربنا جل وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي بالأوامر التي أمروا بها، والنواهي التي نهوا عنها ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلا كي[40] يعبدوا الله، ويتذللوا بين يديه ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة].

3.1.3. القرآن وفطرة الإيمان بالنبوات.

هذا، وإن من لوازم عباد الله سبحانه، والتذلل بين يديه أن تعرف البشرية ما يرضي ربها، وما يسخطه، وهو ما لا يتسنى لها إلا بإعلام منه سبحانه، ولم يجعل الله ذلك إلا على لسان رسله، وأنبيائه، فعلمت الفطرة حاجتها إلى الرسالات، فأيقنت بها، يقول ابن تيمية رحمه الله: « فإنّ الخلق كلّهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق، والإقرار برسله»[41]. وله أيضا كلام عظيم في بيان حاجة البشرية إلى الرسل قال فيه: «فإنّ الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه .... وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإنّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها، ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يُدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذي يُدرك وجه الحاجة إلى الطبّ ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه. وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبّ؛ فإنّ آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً. فلا فلاح إلا باتباع الرسول»[42].

فإن لم يكن الإيمان بالرسل الذي هذه منزلتُه، وهذا شأنه، من الفطرة، التي هُديت السلامة وقبول الحق ورد الباطل، فما الذي يكون من الفطرة إذا؟!! ولعل من دلائل كون الإيمان بالرسالات مما تقر به الفطرة، قول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام أول أنبيائه ورسله إلى خلقه[43]: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٦٣﴾ [الأعراف]، فمع أن إرسال رسول بشري إلى الناس يُنذرهم، ويبشرهم، لم يسبق له مثال قبلي، فليس هو مما يتعجب منه، ويستغرب، بل لو أدركتم وعقلتم وسلمت فطركم لرأيتم ذلك عين الحق والصواب، لما في ذلك من البلاغ الذي به تتقون ربكم، بفعل أمره واجتناب نهيه، فتكونوا من المرحومين.

3. 1. 4. القرآن وفطرة الأخلاق.

الأخلاق هي تلك الغرائز المخلوقة في النفس[44]، خيرها وشرها، صالحا وطالحها[45]، وقد هيأ الله سبحانه الفطرة البشرية لإدراك المكارم، وتمَثُّلها، وحب أهلها، وأودع فيها معرفة ضدها، من الرذائل ومساوئ الأخلاق، ولما كان ذلك اقتضت حكمة الجليل أن يختار لإرسال خاتم رسله، وآخر رسالاته، من بقيت فيهم بقية خير من مكارم الأخلاق وكريم الخصال، لسلامة طباعهم وبعض فطرهم، فكانوا أنسب محل لقبول هدي الوحي ونوره، فجاء القرآن الكريم لتكميلها، وتهذيبها، وتعديلها من غلوها وجفائها، إلى وسطيتها واعتدالها، قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[46]. وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بين يدي النجاشي واصفا رسول الله ﷺ:«... وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ..»[47]، وقال هرقل تعليقا على جواب أبي سفيان رضي الله عنه يوم كان كافرا: «سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت: أنه أمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبي»[48]. كيف لا؟ وهو من أثنى عليه ربه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]، وعلمه وأدبه، فكان ﷺ: «خلقه القرآن»[49].

وآي القرآن الحكيم كثيرة في تقرير الفضائل ومكارم الأخلاق، أصولها وفروعها، أمرا بها، ونهيا عن ضدها، إجمالا وتفصيلا، واحتفلت ببيان كثير منها[50]، وسرد جميع تلك الآيات عسر غير أني أقتصر على بعضها، وأجمَعِها، مما يبين عناية القرآن الكريم ببناء فطرة الأخلاق في نفس المسلم[51]، فمنها:

قوله تعالى في الصبر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣ ﴾ [البقرة]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة]، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩ ﴾ [البقرة]، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦ ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى في القسط والعدل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء:135]، ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢ ﴾ [المائدة]، ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ ﴾ [الحجرات]. ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ ﴾ [النساء:58].

وقوله تعالى في الأمانة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:58]، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى في الوفاء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة:1]، ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ﴾ [الأنعام152]، ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤ ﴾ [الإسراء].

وقال تعالى في الصدق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩ ﴾ [التوبة]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

وفي الأمر بالعفة، والاحتشام، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور:30]، ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور:31]، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون]، ﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ [النور:33].

وقال في كظم الغيظ: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤ ﴾ [آل عمران].

وقال في التواضع: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان].

وفي خلق الإحسان يقول سبحانه:﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝٣٦ ﴾ [النساء].

وقال تعالى في إصلاح ذات البين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال]. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤ ﴾ [آل عمران].

وفي التعاون قوله تعالى:﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر].

وفي الكرم والإيثار قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ ﴾ [الحشر].

وفي الإنفاق قوله تعالى:﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة]. وثمة من الأخلاق كثير ضاقت الأسطر عن استيعابها.

ولم تكتف آي الذكر الحكيم ببيان تلك الفضائل فقط، بل أرشدت إلى ميزان الاعتدال فيها، وبينت منهج الوسطية فيها، وفي بقية أمور الدين، وبينت الحد الذي « مَتى جاوزته صَارَت عُدْوانًا وَمَتى قصّرت عَنهُ كَانَ نقصا ومهانة»[52]، فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:143]، وقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [القصص:77]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ ﴾ [الإسراء]، فجعل الوسطية حتى في العبادة، وهو أصل مقرر في الشريعة عامة. متى جعله المكلف تحت نظره أفلح فهما وعملا، ومتى ضيعه فاته منهما بقدر تفويته.

وبعد جميع ذلك تمم القرآن الكريم بيان المكارم والفضائل، ببيان الرذائل والنقائص تحذيرا منها، ونهيا عنها، بيانا للشيء ببيان ضده، فبضدها تتبين الأشياء على التمام يقول ربنا جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل]، فقد جمعت هذه الآية أصول المكارم والخير أمرا بها، وأصول الرذائل والشر نهيا عنها[53].

2.3 ثانيا: القرآن وفطر الأبدان.

2.3.1.2. القرآن وفطرة الخَلق.

من معاني الفطرة أنها «الصّفة الَّتِي يَتَّصِف بهَا كل مَوْجُود فِي أول زمَان خلقته»[54]، خلق رب العالمين الخلائق جميعا على التمام والكمال في كل حال فهو سبحانه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ ﴾[الأعلى]، وهو ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة:7]، ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾[السجدة]، كان ﴿ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨﴾ [القيامة]، وذكَّر سبحانه تفاصيل أطوار خلقه جنينا ثم قال وهو أصدق القائلين: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون]، فتبارك من خالق عظيم، قائل كريم: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين]، أي خلقناه «في أحسن صورة وأجمل شكل، منتصب القامة، سويّ الأعضاء، حسن التركيب، ...»[55]، فهو الله الخالق، البارئ المصور، الذي بعد خلقه لك في أحسن تقويم ﴿ خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾ [الانفطار]، فأحسن خلقكم، ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:64، التغابن:3]. وتممت السنة النبوية هذا الحسن في الخلقة الربانية بجملة من الخصال هي من صميم الفطرة، فسميت لذلك: (خصال الفطرة)[56].

2.3.2.2. القرآن وفطرة الذكورة والأنوثة.

خلق الله سبحانه الخلق للعمارة والبقاء، فجعل من كل شيء زوجين، وخلق الذكر والأنثى قال سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾[الذاريات]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل]، ثم قدر فهدى كل خلق لما يُصلح حاله ويُبقي وجود، وأودع في كل واحد منهما ميلا إلى جنسه، وهيأ فيهما من الآلات والرغبات ما هو كفيل ببقاء نوعهما، فأودع فيهما شهوة بعضهما لبعض، وهيأ خلقة هذا لتتفق مع خلقة ذاك، فليس ﴿ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل

عمران:36]، وجعل في كل واحد منهما من فطر الأبدان والقلوب، ما يحقق انسجامه وتواؤمه مع الآخر فجعل في الرجل من قوة العقل، والشدة، والغلظة، والحزم، وجعل في المرأة من الرقة، واللين، والحياء، والأنوثة، فإن غاب عنك فهم هذا فتدبر انسجام الأبدان الذي بينهما، تدرك ذلك، وتفهم به سابقه. ثم لمقام هذا التمايز والاختلاف في الخلقة والتكوين، خص الله جل جلاله كل واحد منها بما يناسب حاله من الأحكام والأحوال، بعدما جمعهما فيما يجتمعان فيه منها. وشرع لهما من الشرائع ما هو كفيل بالهداية والسعادة لهما في سائر أحوال الحياة: فشرع لهما قبل الجمع بينهما أحكام الستر والحجاب، وعدم الاختلاط، تحقيقا للعفة والحياء.

وشرع حال الجمع بينهما أحكام الخطبة ومتعلقاتها، والنكاح وأحكامه، والفراش وأحكامه، وما يتبعه من أولاد ورضاع، وتربية، ونفقة، ونحوها، وكما شرع اجتماعهما حال تحقق مصلحته، شرع لهما ضده حال انعدامها، كأحكام الطلاق، والخلع، والإيلاء، واللعان، والعدة، ونحوها.

والآيات القرآنية في بيان ذلك أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، وكل منصف سليم الفطرة، له مُسكة من عقل يزن بها الأقوال والأعمال، يرى عين الحكمة والرحمة في تلك الأحكام، حكمة ورحمة في حال من الانسجام، والتكامل الرباني العظيم، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

3. 2. 3. القرآن وفطرة الأكل والشرب.

إن فطرة الأكل والشرب من الفطر التي تشترك فيها سائر المخلوقات الموجودة للبقاء، فلا عجب أن يوليها القرآن الكريم دستور الفطرة حظها من العناية والذكر، على جهة الامتنان، والتفضل على سائر خلقه مؤمنهم وكافرهم، وإرشادهم إلى ما يرضيه فيها، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقال مخاطبا سائر بني آدم: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء]، وأحل لعباده الطيبات فقال سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:4]، وقال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف]، وأمرهم بالأكل منها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة]، وأرشدهم إلى شكره، بالحمد وعدم الإسراف والتبذير كما تقدم، ونهاهم في المقابل عن كل خبيث، وحرَّمَه عليهم، فقال: ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف]، وفصل لعباده ما حرم عليهم رحمة بهم، فقال: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ [المائدة:3]، وقال في الأشربة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة].

3. 2. 4. القرآن وفطرة اللباس والستر.

امتن الله سبحانه على عباده بنعمة الستر واللباس الحسي والمعنوي فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:31]، وأمر بتطهيرها مزيدا في زينتها فقال: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ [المدثر]، وجعل فيه منافع أخرى، دنيوية ودينية، فقال تعالى:﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ [النحل:81]، تقيكم الحرَّ والقرَّ والضرَّ[57]، وانضاف إلى ذلك منافعه الدينية من ستر العورات، وحجب الزينة، لاجتناب الأذى، فقال سبحانه:﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف:26]، ولمقام التمايز بين الرجال والنساء في هذا الباب، أولى الله سبحانه مزيد عناية بلباس المرأة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾ [الأحزاب]، وقال:﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [النور:31]، إلا لمن هو من محارمهن، ممن ذكرهم الله سبحانه في تمام الآية، لغايات وحكم ربنا يعلمها على تمامها، ولنا بعضها. كلها شاهدة باعتناء القرآن بهذه الفطرة تشريعا وتقويما.

هذا وإن ستر آدمَ وزوجِه عليهما السلام، لعوراتهما يوم أن انكشفت بالأكل من الشجرة، هناك في العالم العلوي قبل أن يكون ثمة تكليف، ولا أمر ونهي، لم أدلِّ ما يكون على تجذر فطرة الستر في آدم وذريته، يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ ﴾ [الأعراف:22]. ف «... كشف العورة من المنكرات، ...ولم يزل مستهجنا في الطباع، مستقبحا في العقول، ... ولذلك ابتدر آدم وحواء إلى سترها، فمن دعا إلى كشف العورات سواء عند الرجال أو النساء فقد هتك ستر الحياء، وأعاد الإنسان إلى البدائية الهمجية، وجعل المرأة سلعة للمتعة والتسلية ولم يرع صون العرض الذي أمر به الدين، واقتضته الفطرة السليمة، وكان صنيعه مثل الشيطان»[58].

3. 2. 5. القرآن الكريم والفطرة والعقل.

الفطرة بما هي عليه من سلامة الأصل، وكمال الاستعداد لقبول الحق من عظيم نعم الله على خلقه، ومن تمام إنعامه عليهم، ومزيد فضله إليهم، أن كمَّل الفطرة بالعقل: الذي هو آلة التمييز والإدراك[59]، ولمقام العقل في معرفة الحق واتباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه، فقد اعتنى به القرآن الكريم غاية الاعتناء، حتى اتفقت كلمة أهل العلم على عدِّ حفظه مقصدا من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية، ومن دلائل ذلك:

أ. أن القرآن رفع منزلة العقل، وكرم أهله وامتدحهم، فهم (أولوا الألباب، والنهى، ...)، وهم الذين يتفكرون، ويعلمون، وبه كرِّم ابن آدم، وتهيأ لحمل الأمانة، وبه يقوم عليه أو يوضع عنه قلم التكليف، قال

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه]. وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [3]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص]. والآيات في هذا كثيرة.

ب. أن القرآن دعا العقل إلى حرية الفكر، المبني على الحجة والبرهان، وترك التقليد المذموم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[آل عمران]، ونهاه بعد ذلك عما يضاد سبيل الحجة والبرهان من أمور الخرافات الأساطير، وحد له الحد الذي يقف عنده، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[غافر:35]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى:﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص].

ت. أن القرآن دعا إلى تنمية العقل، وتطوير قدراته، فأمر بالتعلم، وحظ على العلم، ومدح أهله، وذم الجهل وأهله، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، وقال:﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة]، وقال في مدح أهل العلم:﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه:﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

ث. وفي مقابل التنمية والتطوير المأمور بهما، نهى الشرع وحرم على العبد كل ما من شأنه أن يذهب العقل، أو يؤثر عليه، من خمر أو مسكر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة].

وختما لهذا المبحث الطويل أقول: إن سائر ما تقدم تقريره، والتدليل عليه من آي الذكر الحكيم، والقرآن الكريم كافٍ في بيان عظمة الإسلام، ومدى عنايته بالفطرة البشرية، والسعي إلى تقريرها، وتقويمها، وموضحٌ للعلاقة بين القرآن الكريم، والفطرة السليمة، فهذه الأخيرة دالة إجمالا على الحق الأبلج الذي تضمنته آي القرآن الكريم، وهذا الأخير أولاها العناية اللائقة بها، لبقائها وتحقيق أثرها في حياة المؤمن المتجذر في قلبه أصلها، والمستكمل كمالها من قرآن ربها، فما شرعت الشرائع إلى للحفاظ

على الفطر بإحيائها، وتكميلها.

ولما كان ذلك؛ كان واضحا أن أثر الفطرة القرآنية، الفطرة البشرية السليمة على حياة المؤمن، هو عين أثر القرآن الكريم على حياته الفردية والجماعية، فهو كتاب الهداية المطلقة، والسعادة الدنيوية والأخروية، الفانية والسرمدية، يقول ربنا جل وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم]. ويقول سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ ﴾ [طه]، وقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ [النحل].

وقال جل في علاه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢ ﴾ [الإسراء]، وقال جل جلاله: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ ﴾ [الأحقاف]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء]، فهو الهادي للبشرية إلى السبيل القويم في كل ما من شأنه أن تختلف فيه الآراء، وتتعدد في المسالك والسبل، من أمور الدين والدنيا، مما يتعلق بالعبادات والعادات، وما يتعلق بالرجال أو بالنساء، من أحوال قلوبهم وأبدانهم، وهو سر الحذف الذي في الآية، وما أحسن ما نبه عليه الزمخشري (ت 538هـ) رحمه الله حين قال: «﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها. وأيما قدَّرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه»[60]، فالقرآن هو الهدى المطلق إلى القويم المطلق، وسبيل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

4. تغير الفطرة خطورته، وأهم صوره.

خلق الله الإنسان وبالفطرة صبغَه، وأنزل عليه الهدى وشرْعَه، وجعلهما يتفقان توافق يدي الرجل الواحد، ويتطابقان تطابق أسنان الترس حينما تتقابل فتدور عجلة الحياة بانتظام، حتى يختل أحدهما أو كلاهما[61]، لذا جاء الأمر في القرآن الكريم بالحفاظ عليهما، وعدم التبديل فيهما، فقال سبحانه: ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾[يونس]، وقال جل جلاله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ١١٥﴾ [الأنعام]، وقال:

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾[الكهف]، وقال تعالى في الفطرة وتبديلها: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم].

ولمقام ذلكم التكامل بين الفطرة والشريعة، قد حرص أعداء الرسل في كل زمان على تبديلهما أو أحدهما، قال سبحانه على لسان مغيري الشرائع من أهل الكتاب: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة]، وقال أيضا: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ ﴾ [البقرة]، وقال عن كفار قريش: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس:15]، وقال عن المنافقين: ﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح:15]، فما اهتدوا إلا إلى تغيير الشرائع سبيلا للإضلال، لوجود شيء من الفطرة فيهم، فلم يكونوا ليناقضوا أنفسهم.

وأما العدو المبين، الشيطان اللعين فهو الذي عَرَفَ ابن آدم، وطرقَ إضلاله، فسعى إليه بكل سبيل، بإفساد الفطرة السوية، والشريعة الربانية، قال سبحانه:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر]، وقال بيانا لسعيه في إفساد الشريعة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام:112]، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه عن إبليس المفسد للفطرة: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النساء]، قال ابن القيم رحمه الله: «وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة»[62].

وإنما حرص اللعين على تغيير الفطرة مع صعوبته، وطول مدته، لأجل عظيم خطره، وكبير فساده، وكثرة ضلاله، ثم إنه لسبيل أكيد لتغيير الشرائع، فهي تبع لها، وأما تغيير الشرائع بمفردها فمع سهولته، وسرعته، فهو قليل الأثر، قليل الفساد إن سلمت الفطرة، وهذا الكلام يوردنا إلى نقاط مهمة:

الأولى: أن الحالف بالله أن كل تغيير وإفساد للفطر بأنواعها سببه إبليس اللعين، لا حنث عليه، ولا كفارة، فهو أصل الشر وأقنومه ومستودعه، وجامع أوله وآخره، الفاعل له والمزين به، من لا راحة له حتى يُضل الخلائق أجمعين، عاهد بهذا رب العالمين، فابتلاه الله الحكيم، وابتلى به عباده فأحياه إلى يوم الدين،

فحري بالمؤمن أن يعرف هذا العدو المبين، ويتخذ من كلام ربه الحرز المكين، منه ومن أعوانه الشانئين، من الإنس والشياطين. يقول ابن تيمية رحمه الله: «ولكن يفسدها - أي الفطرة - ما يزين لها شياطين الإنس والجن، بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل»[63]. ويقول أيضا مبينا لبعض أسباب الفساد الأخرى: « لَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لَهَا مَا يُفْسِدُهَا إمَّا مِنْ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تَصُدُّهَا عَنْ التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ، وَإِمَّا مِنْ الشَّهَوَاتِ الَّتِي تَصُدُّهَا عَنْ اتِّبَاعِهِ، ...»[64]. وكل من الشبهات والشهوات سبيل الشياطين في الإغواء والإضلال، يقول ربنا جل وعلا: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف]، فألقى إليهما الشبهات بالمقاسمة والحلف بالباطل، ثم بجعلهما يسيئان الظن بالله لما قال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وأغراهما بشهوات الخلود والبقاء، ونحوها[65]، فرجع سبب الإفساد كله إلى إبليس اللعين.

الثانية: أن الفطر البشرية: «منها ما لا يمكِنُ تغييرُه؛ لتجذُّره وامتزاجِهِ بالخِلْقةِ البشريةِ، وتكوُّنِ الإنسانِ منها...»[66]، كالنوم والاستيقاظ، والأكل والشرب، والغضب والفرح، والبكاء والضحك، والشهوة، ونحوها، وإنما يكون تغييرها بعدم الوسطية فيها، بالإفراط فيها أو التفريط عنها.

الثالثة: أن الشيطان حريص على تغيير ما يتغير من الفطرة: «أَشَدَّ مِن حرصِهِ على تغييرِ الشريعةِ؛ لأنَّها أشدُّ في الانحرافِ والإعراضِ، ثم إنَّ العودةَ إلى الفطرةِ الصحيحةِ تحتاجُ إلى عقودٍ طويلةٍ، ورُبَّما قرون، وأما تغييرُ الشريعةِ فيحتاجُ إلى مجدِّدٍ يعيدُ الأدلَّةَ إلى حقيقتِها، فتتلقَّاها الفطرةُ الصحيحةُ بسهولةٍ، وإن كابَرَتْ فلا يطولُ عنادُها، حتى تستَسْلِمَ وتُذْعِنَ لها»[67]. وهو ما يصور لك خطورة ذلك، وعظيم خطره وضرره، على الفرد والمجتمع، في الدين والدنيا.

ومن خطورة تغيير الفطرة أيضا، ما في هذه النقاط:

الرابعة: « وتغييرُ الفطرةِ أخطرُ وأشدُّ أَثَراً على دِينِ الإنسانِ مِن تغييرِ سُنَنِ الكَوْنِ»[68].

الخامسة: « إذا تغيَّرتِ الفطرةُ التي طُبِعَ عليها الإنسانُ، فلن يفهَمَ الأوامِرَ الشرعيةَ التي أمرَهُ اللهُ بها، حتى تُعدَّلَ الفطرةُ عنِ انتكاستِها؛ لتستوعِبَ؛ كالإناءِ المقلوبِ لا بُدَّ مِنْ تعديلِه حتَّى يستوعِبَ ما يوضعُ فيه؛ لهذا شدَّد اللهُ في أمرِ الفطرةِ، وحذَّر مِن تغييرِها؛ لأنَّها تؤثِّرُ على استيعابِ أوامرِه ونواهِيه، والإيمانِ بعلَلِها ومقاصِدِها، وكُلَّما كانتِ الفطرةُ أشدَّ تغييراً، كانَتْ أشدَّ ردّاً للجزئياتِ؛ لأنَّها لم تَفْهَمِ القواعدَ والكُلِّيَّاتِ، فالأُمَمُ التي تُحِلُّ الزِّنَى وتُبيحُهُ وتُشَرِّعُه لن تفهَمَ الحجابَ، وتحريمَ الخلوةِ والاختلاطِ؛ لأنَّها مقدِّماتٌ وحواجزُ بعيدةٌ لشيءٍ لا يؤمِنُون بتحريمِه»[69].

السادسة: أن « تغييرَ الفطرةِ الواحدةِ يُلْغِي معه شرائعَ كثيرةً متعدِّدةً؛ كقَطْعِ أغصانِ الشجرةِ الكبيرةِ يسقُطُ معها ما لا يُحصى مِن عيدانِها وأوراقِها، لو تتبَّعَها وحدَها، أتعَبَتْه جهداً، وطالَتْ معه زمناً؛ ولهذا فمِن وسائلِ الشيطانِ وأعوانِه: تغييرُ أصولِ الفطرةِ؛ ليسهُلَ سقوطُ توابِعِها من مقرَّراتِ الشريعة. ... ومِن أعظمِ أصولِ الفطرةِ: فطرةُ العفافِ، وإنْ غُيِّرَتْ فإنها يتغَيَّرُ معها -تبعاً- شرائعُ كثيرةٌ؛ كغَضِّ البَصَرِ، وخَفْضِ

صوتِ المرأةِ، وعدمِ خضوعِها به، والحجابِ، وإخفاءِ المفاتِنِ منعاً للإثارةِ، وعدمِ الاستهانةِ بالخلوةِ، والفصلِ بين الجنسَيْنِ، وتركِ الغَزَلِ، وعدمِ اتخاذِ الأصدقاءِ بين الجنسَيْنِ، وغيرِ ذلك، فهذه وغيرُها تسقُطُ، إن سقطَتْ فطرةُ العفافِ، تبعاً»[70].

السابعة: أنَّ تخلي الإنسان عن عقله مورد له موارد البهائم، وأما تخليه عن فطرته، فمن شأنه أن يَسفل به أبعد من ذلك يقول ربنا جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف]، وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان]، وما أحسن قول صاحب "المنار": «﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مِنَ الْأَنْعَامِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ لَا تَجْنِي عَلَى أَنْفُسِهَا بِتَجَاوُزِ سُنَنِ الْفِطْرَةِ، وَحُدُودِ الْحَاجَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي أَكْلِهَا وَشُرْبِهَا وَنَزَوَاتِهَا بَلْ تَقِفُ فِيهِ عِنْدَ قَدْرِ الْحَاجَةِ الَّتِي تَحْفَظُ بِهَا الْحَيَاةَ الشَّخْصِيَّةَ وَالنَّوْعِيَّةَ، وَأَمَّا عَبِيدُ الشَّهَوَاتِ مِنَ النَّاسِ فَهُمْ يُسْرِفُونَ فِي كُلِّ ذَلِكَ إِسْرَافًا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ أَمْرَاضٌ كَثِيرَةٌ يَقِلُّ فِيهِمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهَا كُلِّهَا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَاهِدُ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ جِهَادًا يُفَرِّطُ فِيهِ بِحُقُوقِ الْبَدَنِ فَلَا يُعْطِيهِ الْغِذَاءَ الْكَافِي وَيُقَصِّرُ فِي حُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ، أَوْ يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَهَا بِالرَّهْبَانِيَّةِ، فَيَجْنِي عَلَى شَخْصِهِ وَعَلَى نَوْعِهِ بِالتَّفْرِيطِ كَمَا يَجْنِي عَلَيْهِمَا عَبِيدُ اللَّذَّاتِ بِالْإِفْرَاطِ»[71].

الثامنة: أن تغير الفطرة مع ما يحتاجه إصلاحها من مزيد كلام واستدلال، وإعمال واشتغال لجهود العلماء والدعاة، زيادة على ما هم مشتغلون فيه، تغير الفطرة مع كل هذا مرقّق لما هو دونه من الموبقات، ومهون على النفوس ما هو دونه من المنكرات، فإن رأى الرائي منكرا وكبيرة، صبرته نفسه عن إنكاره بوجود ما هو أنكر، فيا لله ما هذا العجب...، وفي المقابل هو سبب في استقرار واستمرار كثير من المنكرات بسبب فقه المقارنة المقلوب، فمن كان على محرم من المحرمات حمد حاله إذا رأى من هو على كبيرة من الكبائر، وصور ذلك في الواقع لا تخفى على اللبيب.

التاسعة: كثير من خصال الفطرة تؤخذ اقتداء، يسندها الخلف عن السلف، والأبناء عن الآباء، فتغير الفطرة وتتابع الأجيال، والناس عليه، يصعب معه الرجوع، كلما طالت مدته، وتباعد الفاصل بين القدوة الذي لم يتغير، والضعيف الذي تغير، ثم يطول زمان حتى يقتدي المعلول الهالك، بالضعيف السقيم، وهكذا، فتأمل عظم الخطر كلما طال المدة، فانقطاع السند سبب الضعف، فكلما اتسع الانقطاع، اتسع الضعف حتى يصير إلى الهلاك والتلف.

هذا، وإن شواهد فساد الفطرة وصور تغيرها لكثيرة، فإن خفيت على البعض في صفحات القرآن والمصحف الشريف، فلا أظن البصر يخطئها على صفحات الحياة، والواقع المعاصر المخيف، تحدث بكل حرج، وخجل، وطأطأة رأس، عن الصور السافرة لتغير فطر هذا الزمان، وانتكاسها وترديها إلى القعر المظلم السحيق، ترعاها في ذلك الأيدي الشيطانية، الإنسية والإبليسية، ودونك أخي القارئ بعضا من صور ذلك، وأعتذر عن الإزعاج بها سلفا، وحتى لا أبالغ في نكث الجراح، وإدمائها بها، أمرُّ على تلك الصور

مرورا موجزا فحسب، فسليم الفطرة تغنيه الإشارة، وفاسدُها لن تقنعه أي عبارة، فمن تلك الصور:

أولا: انتكاس فطرة الإيمان بالله المعبود فصارت إلى الإلحاد وإنكار الوجود، فبعدما كان الإلحاد مذهبَ من يكذبُ ويصدق كذب نفسه، صار اليوم تيارا تدعمه المؤسسات، والحكومات، وتؤصل له الأبحاث والنظريات، يقدمهم في ذلك الشيطان اللعين الذي يؤمن بربه، ويكذب على خلقه، فهو الذي اعترف بربوبيته يوم سأله الإنظار، قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر]، ثم يوسوس لخلقه حتى يكفرون، قال ربنا سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر]، وقال نبينا ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ»[72]. و«لْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»[73]، وأما إن استرسل فهو: إما أن يؤمن بإله مخلوق، وكل مخلوق بعد ذلك يمكن أن يكون إلها، وليس الله الحق سبحانه كهذا أو كذاك، وإما أن ينفي وجود الإله مطلقا إذ كل شيء موجود مخلوق، والإله الحق ليس بمخلوق، فليس الإله إذا بشيء موجود. فآل الأمران إلى الإلحاد وإنكار الإله الحق.

ثانيا: انتكاس فطرة التوحيد فصارت إلى الشرك والتنديد، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ ﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ ﴾ [النمل]، وقال أيضا: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩ ﴾ [المجادلة]، وفي الحديث القدسي: «... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ...»[74]، وأول الشرك شرك قوم نوح عليه السلام في صالحيهم: «فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[75].

ثالثا: انتكاس فطرة التذلل لله رب البريات، فصارت تذللا للشياطين، والهوى والشهوات، وسائر المعبودات، قال ربنا جل جلاله: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ ﴾ [يس]، وقال حاكيا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ ﴾[مريم]. ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ ﴾[الفرقان]، وقال ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[76].

رابعا: انتكاس فطرة مكارم الأخلاق، فصارت إلى دنيئها وسفسافها، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ ﴾

[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة:268]. شاع الكذب المشين، وقول الزور، وقطعت الأرحام، وكاد ينعدم الحسن في الجوار، انتهكت الأعراض، وسفكت بالباطل الدماء، وكثر القتل والهرج، وكثر الظلم والطغيان، خاصة على الأبرياء والضعفاء، ... وآسف إن قلت لك أيها القارئ: تخيل ما شئت؟!! .. سأجيبك بأنه: قد وقع. لقد فُقِدت المكارم من أصلها، وبين أهلها، فكيف بك تنتظرها في غيرهم، قال ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالوا: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[77].

خامسا: انتكاس فطرة الذكورة والأنوثة، فصارت إلى تشبه عجيب، مضحك مبك، استرجلت النساء، وتخنث الذكور، فذهب الحياء وغابت العفة، والطهر، وارتحلت الأنوثة، لما نحرت النخوة والرجولة على عتبات ثقافة الغرب، واتهمت الشهامة، والمروءة، في محاكمهم، ثم غيِّبت في سجونهم، وأقولها متأسفا لقد صرنا نتمنى بعض أخلاق العرب الأُوَل.

سادسا: انتكاس فطرة الخَلْق فصارت إلى التغيير والتبديل الجزئي، غرز للمسامير على العيون والأذقان، ووشم ورسوم على الأبدان، تقطيع وتشقيق للأنوف والآذان، تطويل للشعر في كل مكان، أو قص له بشكل غريب، وقائمة الموضة الشيطانية طويلة، ثم لا فرق بين كبير أو صغير، ولا بين ذكر وأنثى.

سابعا: انتكاس فطرة الخَلق، فصارت إلى التغيير، والتبديل الكلي، فلم تعرف البشرية عبر تاريخها الطويل، تغييرا كتغيير هذا الزمان، الذي يصبح الواحد فيه رجلا، ويمسي أنثى، وتصبح فيه المرأة أنثى فتمسي رجلا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كانت النفوس الأبية تشمئز من رؤية مخنث، أو مسترجلة، فماذا عساها تفعل اليوم:

(لمثل هذا يموت القلب من كمد .... إن كان في القلب إسلام وإيمان).

ثامنا: انتكاس فطرة الستر والحجاب، فصارت إلى العري والسفور، والتبرج، ولبس الضيق، والقصير، وموضات الكاسيات العاريات، بشكل لم تشهده البشرية في أي زمن من الأزمان، فلا تعجب مما يتبع ذلك من عدم غض للأبصار، بل تنافس المتنافسون والمتنافسات في طرق استجلابها، من مكياج وزينة على الوجه واللباس، وقائمة الميزات كثيرة، إمكانية تغير لون الشعر والعينين ممكنة، لتتناسب مع لون اللباس، وقصاة الشعر المتنوعة ... .

تاسعا: انتكاس فطرة الزواج ونكاح النساء فصارت إلى أنواع الفاحشة من الزنا، وإتيان الذكران، والسحاق، ويوم كانت الرجولة قال القائل في فاحشة قوم لوط: «لو لم يذكره ربنا في القرآن لما صدقت أن رجلا ينزوا على رجل»، وأما اليوم فهو من العصرية، والديمقراطية الفكرية، تخص بالأسماء، وتسن له القوانين، ويحتفل بأهلها، بل ويدخلون التاريخ من باب الافتخار، والتمجيد، وتجعل لهم الميزانيات والحقوق والشعارات والرايات ... .

عاشرا: انتكاس فطرة تعدد الزوجات، فصارت إلى تعدد الخليلات، والخيانات الزوجية، ولا تعجب من هذا في زمن تُتَبادل فيه الزوجات، فتصير فيه عيشة السباع أكرم عيشا، ومحكمة الغراب أعدل حكما.

حادي عشر: انتكاس فطرة الإرضاع والتربية، فصارت إلى الرَّضَّاعة، وامرأة أجنبية سموها المربية، وقديما قالوا: «النائحة الثكلى ليست كالمستأجرة»» وعلى هذا فقس.

ثاني عشر: انتكاس فطرة الأكل والشرب الطيب، فصارت إلى كثير من الحرام من غير ملام، وما حلّ منه فمن غير انضباط، بقدر أو بزمان، أو بمكان، ...، وبعدما كان وسيلة، صار غاية، وفي الحكمة يقال: نأكل لنعيش، ونعيش لنعبد الله سبحانه، أما اليوم فنأكل لنعيش، ونعيش لنأكل، فأنت إذا تأكل لتأكل، لأن العيش ليس لك إيجاده، ولا إعدامه.

وليعذرني القارئ الكريم على هذا التذكير بكل هذه المناكير، فلن أطيل، غير أني أضيف أمرا مهما ساعد في تكريس جميع ما تقدم، إنه العقل حينما يُعطَّل دوره، فبعدما حُرِم العلم النافع، وصُدَّ عن العمل به، أُغرق في بحار من الشبهات والشهوات، وحُفَّ بسائر المفسدات، من المخدرات، والمسكرات، والملهيات، وبعد أن كان يسعى إليها فها هي اليوم تسعى إليه لتصله أينما يشاء، بالقدر الذي يشاء وفوق ما يشاء، ولا تسأل عن سرعة الخدمات، هي في تطور يوما بعد يوم، فبعد التلفزيون، والحواسيب المنزلية، جاء جيل الحواسيب المحمولة، والهواتف الذكية، وبعد زمن القنوات الفضائية التلفزيونية، جاء زمن الشبكة العنكبوتية، وعالم الغرفة الواحدة، وفضاءات التواصل المباشر، كل ذلك لنشر عفن إعلام مقيت مُوجَّه مُغرض، مضلل، صِف بما شئت، والله المستعان.

كل ذلك ضمن تخطيط أجنبي صهيوني خبيث، تُموِّله دول الإرهاب الفكري، والغزو الحضاري، في ظل تخاذل دولي عربي، تحت الرعاية الشيطانية السامَّة، ولا تعجب، فقد قال ربنا جل جلاله:﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام]، بل لقد صارت اليوم وهم يعبدونها تخاطبهم علانية، فلا تستغرب، ولا تعجل بالإنكار، وتذكَّر قصة كفار قريش والشيخ النجدي[78]، يوم أرادوا قتل النبي ﷺ إبان هجرته، لتعلم إمكانية أصل الفكرة، ولخيالك التوسع بعد ذلك بما شئت، فلا أرى شيئا منه ممتنعا.

وزاد الأزمة أبناء ديننا، وأمتنا، وعلماء سوء فينا، روَّجوا للانتكاس بكل صوره، بل وأصلوا زعما أدلته، ولم يدر أحدهم أن من كان في حُلُم لن يدرك حتى يستيقظ، ومن امتلأ قلبه من كأس الانتكاس، لن يغرف لسانه إلا منه، والله المستعان.

5. طرائق علاج الفطرة، وحفظها.

من المعلوم بداهة أن معرفة الداء تستدعي طلب الشفاء، والعلم بأسباب الوباء، أول مراحل الدواء، وقد علمت أيها القارئ الكريم مما تقدم شيئا من الكلام على الفطرة، من حيث تعريفها، وأنواعها، ومقوماتها، وأسباب تغيرها، وأخطاره، وقرأت صورا معاصرة من ذلك التغير؛ وعلمت أيضا أن الشرائع عموما، وملة

الإسلام خصوصا، جاءت لإحياء الفطرة، وتكميلها، وإحاطتها بما يحفظها، ويديمها، «... فَلَوِ اهْتَدَى النَّاسُ بِالْقُرْآنِ فِي فِقْهِ أَسْرَارِ الْخَلْقِ وَمَنَافِعِهِ لَجَمَعُوا بِهَا بَيْنَ ارْتِقَائِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِمَعَادِهِمْ، ...»[79]، فإذا كان هذا مقررا، علمنا أن طريق الحفاظ على الفطرة هو دوامها على الاهتداء بهدي القرآن الكريم، والشرع الرباني العظيم، مع ضرورة العلم بأسباب الفساد لتكون الفطر السوية على علم بما يشينها أو يفسدها فتتقيه، وتبتعد عنه، وتُقْصِي كلَّ داعٍ إليه، ومزيدا في معرفة خيرية سلامة الفطرة، لا بد من النظر والتأمل في عواقب تغيرها، لتوقن الفطر السليمة مدى الخير الذي هي عليه حال سلامتها.

وأما طريق علاج الفطرة فلن يكون إلا بأمور ثلاثة رئيسة: أولها: التخلص من أسباب الفساد. وثانيها: الاهتداء بالقرآن الكريم. وثالثها: الدوام والاستمرار عليهما. ويندرج تحت كل واحد منها جملة من النقاط، أذكرها فيما يأتي مرسلة بحسب ما اتفق في الذهن، ووافقه رقمُ البنان، فأقول:

1. ضرورة العلم بأسباب فساد الفطرة، وتغيرها، للتخلص منها، وقد سبق بيانها فيما تقدم، فأصلها الشيطان الرجيم، وأعوانه من الجن والإنس، وأعداء الدين.

2. بيان أن هذا الكيد الإبليسي المجرم، ليس إلا حلقة من حلقات المؤامرة المستمرة التي توعد بها إبليس العباد جميعا، لم يستثن منهم مؤمنا أو كافرا، ليضلهم فيكونوا حزبه يوم القيامة في نار جهنم، فما من شر إلا وله فيها يد كبرت أو صغرت، طالت أو قصرت.

3. وقد علمتها مما تقدم، وهي العلم بخبث من يقف وراء كل تغيير للفطرة، لتعلم حينئذ ما مراده، فعلمك بأن عدوك يسعى لإفسادك سبب في هروبك من مكايده.

4. أن أصل طرق الفساد وأسبابها الصد عن الاهتداء بالقرآن الكريم، بتبديلها وتحريفها، لفظا أو معنى.

5. ضرورة العلم بأن الكيد الإبليسي انطلى أكثره على الشعوب المادية التي لا تؤمن به، مما جعله يعمل في أمن واطمئنان من أن يَفتَضح حاله، وتُكشَف فِعاله.

6. فكان لزاما من ذلك ضرورة الاعتناء بدعوة الشعوب المادية، وردها إلى العقل السليم، الذي يقبل الشرع القويم، والذي يدفع الفطرة إلى السلامة، ومن ثم إلى ما هو أحسن، وهذا ما يوجب أيضا الحفاظ على العقل، وتكريس ما يدفعه إلى المحامد، ودفعه عن ما يشينه.

7. بيان ضلوع الدول العلمانية، واللادينية، واليهودية، والنصرانية وراء تكريس هذه التصرفات، لنشر الفوضى في الدول، وضمان استمرار سوء أحوالها الدينية، وما يتبعها من اجتماعية واقتصادية، وسياسية ونحوها.

8. العلم بخطورة أمر الفطرة، وخطورة تغييرها، وأثر ذلك على البشرية جميعا، لتوقن بضرورة الإقلاع عنه ومحاربته، وكفى دليلا على خطورة أمر ذهاب الفطرة، أن تسقط البشرية عن حد الفطر الحيوانية.

9. أنّ التحلي بالأحكام الشرعية، والثقافة القرآنية ناتج عن معرفتها، والعلم بها، وهي مسؤولية أهل العلم وطلابه، ببيان الأحكام الشرعية، والمسائل الدينية، والدعوة إليها بالحجة والبرهان الواضح المستبين.

10. أن رد الفطر المنحرفة إلى سواء السبيل لا يحتاج إلى علوم كبيرة بقدر ما يحتاج إلى نشر الثقافة القرآنية، حفظا وقراءة وتدبرا، في إطار مبدأ الوسطية الرباني، ورعاية خصائص الزمان والمكان.

11. أن هذا العمل لا بد أن تسبقه خطط عمل شاملة ومحكمة من أهم مقوماتها:

12. أولها: توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، لتتكامل الجهود، وتتجه القوى وجهة واحدة دفعا لداء التفرق المضعف لها، والمبدد لجهودها.

13. ثانيها: رعاية الأولويات الدعوية، والاهتمام بالأخطر من تغيرات الفطرة ثم الأخطر.

14. ثالثها: وضع جدول لتنظيم الأعمال، على مستوى الجماعات، والأفراد، والمنظمات الدعوية، الخاصة وغيرها، للعلاج المثمر، المتكامل، يحدد للجميع البدايات، والمراحل، والنهايات.

15. رابعها: استعمال جميع وسائل الإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي في نشر الثقافة القرآنية والدفاع عنه، وإعطاء بعض صور القدوة المعاصرة.

16. خامسها: تطوير الإعلام الديني الهادف والمعتدل، والرفع من قدراته العلمية والفنية، ليتكافأ مع متطلبات العلاج، ويكون في مستوى العمل المنشود.

17. يصحب هذا في المقابل التحذير من الإعلام المفسد.

18. اضطلاع صاحب كل مسؤولية بمسؤوليته تجاه من يعول، ومن هم رعيته، ببيان الثقافة القرآنية، والأحكام الشرعية، وأدلتها، وصدق براهينها، وسلامة نتائجها، ومدى تطابقها مع الفطر السوية.

19. ومن أعظم تلك المسؤوليات، المسؤولية الملقاة على عاتق ولاة الأمور، ومن بأيديهم سلطة الحل والإبرام، وذلك بحمل الناس على هدي الآيات القرآنية، وسن القوانين المحافظة على مقومات الدين والفطرة، والميسرة على كل عامل في هذا الإطار.

20. ضرورة الإسراع باتخاذ ما يمكن من وسائل العلاج، وأي تأخر سيزيد الانفصال بعدا، والهوة عمقا، بين جيل السلامة النسبية، وجيل تغير الفطرة بمختلف مراتب تغيرها، ... .

21. ثم الدوام على سائر ما تقدم مُددا لتتربى الأجيال على السلامة، ويتخلى كل جيل عن عيوب سابقه، وتغيرات فطرته.

22. لنرى بعد أجيال من هذا العمل المضني جيل القدوة الذي يعطي صورة الفطرة السوية قولا وفعلا.

وأخيرا فهذا جهد المقل في بيان بعض عوامل إصلاح الفطرة، والحفاظ عليها، وإني على أتم اليقين، أن أمرا جللا كهذا لا يكفي فيه رأي الواحد، أو الاثنين، وغاية مرادي فتح الموضوع بيانا لبعض مسائله، وإشارة إلى جوانب الخطورة فيه، بما يقتضي تظافر جهود الغيورين، من أهل العلم، لوضع خطة العمل، وخط السير الكفيل بالفلاح.

6. الخاتمة

وفي ختام الكلام على موضوع "الفطرة وأثرها" أقف بالقارئ الكريم على نتائج ما تقدم، فأقول:

- اطلع القارئ الكريم على أهم معاني الفطرة في اللغة، ومواردها في القرآن والسنة.

- اقترن ورود مادة (فطر) في القرآن الكريم بأمور عظيمة، كخلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان أول مرة، فكان موضوع "الفطرة وأثرها" لا يقل عن تلك المنزلة مقاما.

- تنوعت معاني الفطرة في النصوص النبوية، بين أعمال قلبية، وأخرى من عمل الجوارح، بل وحتى الأطعمة والأشربة.

- عرض البحث أقوال أهل العلم في مفهوم الفطرة ومعناها، واستطرد بشرح وجه الجمع بينها.

- أوضح البحث بعض المسائل المتعلقة بموضوع الفطرة، كأقسامها، وتعلقها بركني العمارة والعبادة.

- أوضحت فقرات البحث مدى اعتناء القرآن الكريم بالفطرة البشرية أصولا وفروعا، بناء وتكميلا، أمرا بها وتحذيرا من نواقضها.

- وضمن اعتناء القرآن الكريم بالفطرة البشرية يرى المتأمل مدى التقاطع بينه، وبين مقاصد الشريعة الكبرى، فاعتناء الشريعة بتلك المقاصد العظيمة جزء من اعتنائه بالفطرة البشرية، من حيث بناء أصلها، وتكميل فرعها، وصيانة حياضها.

- استجمع البحث كثير من الآيات القرآنية في مواضيع متعددة منها: موارد مادة (فطر)، وجملة من الأخلاق والآداب الشرعية القرآنية، واعتناء القرآن بمبدإ الوسطية، وكمال الله جل وعلا في خلقه للمخلوقات جميعها، وخاصة بني آدم، واعتناء القرآن الكريم بالعقل بناء وصيانة.

- تغير الفطرة من الأمور الخطيرة، في ذاتها، وفيما يترتب عنها من فساد، لذا فهي من أهم مقاصد أعمال المفسدين من الكفار والنافقين، وإخوانهم الشياطين من الجن والآدميين.

- أوضحت فقرات البحث مظاهر تغير الفطرة، ومدى خطورته على البشرية، وما يترتب عليه من فساد عريض.

- إن انتكاسة الفطرة البشرية يرديها إلى حال أحط من حال البهائم، وهو مرتع خطير وخيم رأينا بعضه في زماننا، فماذا عسانا نرى بعد لو استمر المسار في هَويِّ الانتكاس، ثم إن عُذِر الكفار بما هم عليه من العمى عن هدي الوحي الرباني، فما بال أهل ملة القرآن يقتدون بهم، وهم يرون ما آلوا إليه؟!!.

- أن الشيطان الرجيم هو أصل الضلال والانحراف، فليتق الله أقوام في بعض كلمات فيها من التساهل في وصف هذا العدو ما يكون هو به أول الفرحين، لما فيها من تبرئة ساحته، وتخفيف شره، تجعله يعمل في طمأنينة عن أي اتهام، في حين أنه المتهم في كل حال، كقولهم: "فعلة لا يفعلها الشيطان، أو أن الشيطان يتعلم من بعض الإنس..."، وما شاه هذه الكلمات.

ومن تمام نتائج البحث جملة من التوصيات التي رأى الباحث ضرورة استكمالها بحثا وإنجازا رجاء النفع بها في مواضيعها، ومن تلك التوصيات:

- وردت الفطرة في آي من القرآن الكريم بلفظها، وفي أخرى بمعناها، تقتضي استطرادا في جمعها، يخرج به البحث عن مقصوده، فأوصي بأن تجمع مختلف الآيات الواردة في هذا الموضوع، وتدرس

للاهتداء بهداياتها.

- كما أوصي بوضع دراسة تعنى بموارد لفظ الفطرة في السنة النبوية، جمعا لها ودراسة لدلالاتها.

- وآخر ما أوصي به وهو أهمه، أن يعقد مؤتمر خاص بموضوع الفطرة، يحاط فيه بجميع مسائلها، ومتعلقاتها، من بحوث شرعية وأخرى نفسية وفكرية وعقلية، محاولة في الإحاطة بكافة المعارف والمعلومات التي من شأنها الإسهام في الفطرة سلبا أو إيجابا.

والحمد لله أولا وآخر، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

7. قائمة المراجع:

- ابن حنبل، أحمد، (1421هـ- 2001م)، "المسند"، ت شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة،ط1.
- ابن الأثير، المبارك بن محمد، (1399هـ- 1979م)، "النهاية في غريب الحديث"، ت طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية.
- الأزهري، محمد بن أحمد، (2001م)، "تهذيب اللغة"، ت محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، ط1.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (1409هـ - 1989م)، "الأدب المفرد"، ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، ط3.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (1407هـ- 1987م)، "الصحيح الجامع"، ت مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط3.
- البغوي، (1403هـ-1983م)، "شرح السنة"، ت شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط2.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1399هـ)، "أمراض القلوب"، المطبعة السلفية، ط2.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1422هـ)، "الإيمان الأوسط"، ت محمود أبو سن، دار طيبة للنشر، ط1،.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1419هـ- 1999م)، "الجواب الصحيح"، ت علي بن حسن وآخرون، دار العاصمة، ط2،.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1399هـ)، "الرسالة العرشية"، المطبعة السلفية، ط1.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1419هـ- 1999م)، "اقتضاء الصراط المستقيم"، ت ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، ط7.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1416هـ- 1995م)، "مجموع الفتاوى"، ت عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1420هـ- 2000م)، "النبوات"، ت عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، ط1.
- ابن حجر، أحمد بن علي، (1379هـ)، "فتح الباري" إ محب الدين الخطيب، دار المعرفة.

- الطبري، محمد بن جرير (1420هـ- 2000م)، "جامع البيان"، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، (1422هـ)، "زاد المسير"، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط1.
- الخطابي، حمد بن محمد، (1409هـ- 1988م)، "أعلام الحديث"، ت محمد بن سعد آل سعود، جامعة أم القرى، ط1.
- الخطابي، حمد بن محمد، (1351هـ- 1932م) "معالم السنن"، المطبعة العلمية حلب، ط1.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (1987م)، "العين"، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1.
- ابن دريد، محمد بن الحسن، (1987م)، "الجمهرة"، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1.
- الرازي، محمد بن أبي بكر، (1420هـ- 1999م)، "مختار الصحاح"، ت يوسف الشيخ، المكتبة العصرية والدار النموذجية، ط5.
- الزجاج، إبراهيم بن السري، (1408هـ- 1988م)، "معاني القرآن" ت عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1.
- الزمخشري، محمود بن عمرو، (1419هـ- 1998م)، "أساس البلاغة"، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1.
- الزمخشري، محمود بن عمرو، (1407هـ)، "الكشاف"، دار الكتاب العربي، ط3.
- ابن سيدة، علي بن إسماعيل، (1417هـ- 1996م)، "المخصص"، ت خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط1.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، (1984هـ)، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر تونس،..
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، (1387هـ)، "التمهيد"، ت مصطفى العلوي ، محمد البكري، وزارة عموم الأوقاف المغرب.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، (1421هـ- 2000م) "الاستذكار"، ت سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، ط1.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام، (1415هـ- 1995م)، "فضائل القرآن"، ت مروان العطية، وآخرون، دار ابن كثير، ط1.
- الطريفي، عبد العزيز ، (1436هـ- 2015م)، "الحجاب في الشرع والفطرة"، دار المنهاج، ط1.
- ابن عطية، (1413هـ- 1993م)، "المحرر الوجيز"، ت عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1.
- الفراء، يحيى بن زياد، "معاني القرآن"، ت أحمد النجاتي ومحمد النجار وعبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط1.
- ابن فارس، أحمد، (1399هـ- 1979م)، "معجم مقاييس اللغة"، ت عبد السلام هارون، دار الفكر،.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (1419هـ- 1999م)، "تأويل مختلف الحديث"، المكتب الإسلامي ومؤسسة الإشراق، ط2.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (1397هـ)، "غريب الحديث"، ت عبد الله الجبوري، مطبعة العاني بغداد، ط1.
- القرطبي، محمد بن أحمد، (1384هـ- 1964م)، "الجامع لأحكام القرآن"، ت البر دوني وأطفيش، دار الكتب المصرية، ط2.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، (د ت)، "إغاثة اللهفان"، ت محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، (1393هـ- 1973م)، "الفوائد"، دار الكتب العلمية، ط2.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، (1405هـ- 1985م)، "الوابل الصيب"، ت محمد معوض، دار الكتاب العربي، ط1.
- ابن كثير، إسماعيل، (1420هـ- 1999م)، "تفسير القرآن العظيم" ت سامي سلامة، دار طيبة، ط2.
- الكفوي، أيوب بن موسى، (د ت)، "الكليات"، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة.
- محمد رشيد رضا، (1990م)، "تفسير المنار"، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مرتضى الزبيدي، محمّد بن محمّد، (د ت) ،"تاج العروس"، ت مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- القيسي، مكي بن أبي طالب، (1429هـ- 2008م)، "الهداية في بلوغ النهاية"، جامعة الشارقة، ط1.
- ابن منظور، محمد بن مكرم ، (1414هـ)، "لسان العرب"، دار صادر، ط3.
- أبو جعفر النحاس، أحمد بن محمد، (1421هـ)، "إعراب القرآن"، دار الكتب العلمية، ط1.
- النووي، يحيى بن شرف، (د ت)، "المجموع شرح المهذب"، دار الفكر.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف، (1375هـ- 1955م)، "السيرة النبوية"، ت مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (1418هـ)، "التفسير المنير"، دار الفكر المعاصر دمشق، ط2.
- الواحدي، علي بن أحمد، (1430هـ)، "البسيط"، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1.

8. الحواشي والإحالات:

(1) ـ «وجَمْعُ الفِطْرَة فِطراتٌ، بفَتْح الطاءِ وسُكُونِهَا وكَسْرِها، ...» مرتضى الزبيدي، محمّد بن محمّد ،"تاج العروس"، ت مجموعة من المحققين، دار الهداية، (322/13). وذكر العلامة ابن سيدة رحمه الله (ت 458هـ) في "المخصص" في كتاب الغرائز عددا من الأسماء العربية التي تترادف مع معنى الفطرة، فذكر منها: (الغريزة، والجبلة، والخلقة، والطبع والطبيعة، والسجية، والسليقة، والنحيتة) وهذه أكثرها استعمالا ابن سيدة، علي بن إسماعيل، 1417هـ- 1996م "المخصص"، ت خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط1 (321/1- 322). وانظر أيضا:

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ، 1397هـ "غريب الحديث"، ت عبد الله الجبوري، مطبعة العاني بغداد، ط1 (149/1).

ابن دريد، محمد بن الحسن، 1987م "الجمهرة"، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، (269/1، 755/2).

ابن فارس، أحمد، 1399هـ- 1979م "معجم مقاييس اللغة"، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، (510/4).

الرازي، محمد بن أبي بكر، 1420هـ- 1999م "مختار الصحاح"، ت يوسف الشيخ، المكتبة العصرية والدار النموذجية، ط5، (95).

ابن منظور، محمد بن مكرم ، 1414هـ "لسان العرب"، دار صادر، ط3، (86/10).

(2) ـ. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، 1987م "العين"، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، (418/7).
(3) ـ. الأزهري، محمد بن أحمد، 2001م "تهذيب اللغة"، ت محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، ط1، (222/13).
(4) ـ.ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، مصدر سابق، (510/4).
(5) ـ. الزمخشري، محمود بن عمرو،1419 هـ - 1998 م، "أساس البلاغة"، ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، (28/2). وانظر: ابن الأثير، المبارك بن محمد، 1399هـ- 1979م "النهاية في غريب الحديث"، ت طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، (457/3).
(6) ـ. أخرجه أبو عبيد في "فضائل القرآن" (345)، وابن جرير في "التفسير" (283/11)، وابن عبد البر في "التمهيد" (78/18)، والبيهقي في "الشعب" (212/3). ورجال إسناده ثقات إلا إبراهيم بن مهاجر فهو صدوق في حفظه بعض الشيء، كما في "التهذيب" لابن حجر (146/1). الظاهر أن كلام الأئمة في مروياته المرفوعة، أما ما كان من قبيل التفسير كهذه، فلعل محله القبول، والله أعلم.
(7) ـ.قال «فكيف يكون الفَطْرُ في معنى الخَلْق والانفطار في معنى الانشقاق؟؛ فإنهما يَرْجِعَان إلى شِيءٍ واحد، لأن معنى فطرهما خَلقهما خلْقاً قاطعاً، والانْفِطَار والفُطُورُ تقَطع وتشقق.» الزجاج، إبراهيم بن السري، 1408 هـ - 1988 م "معاني القرآن" ت عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، (233/2)، وانظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، 1422هـ "زاد المسير"، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط1، (13/2).
(8) ـ. الطبري، محمد بن جرير 1420هـ- 2000م "جامع البيان"، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، (283/11)، الزجاج، "معاني القرآن" (233/2)، وابن الجوزي، "زاد المسير"، مصدر سابق، (13/2).
(9) ـ. الطبري، "جامع البيان"، مصدر سابق، (487/11).
(10) ـ. الفراء، يحيى بن زياد ، "معاني القرآن"، ت أحمد النجاتي ومحمد النجار وعبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط1، (243/3). القيسي، مكي بن أبي طالب، 1429هـ- 2008م "الهداية في بلوغ النهاية"، جامعة الشارقة، ط1، (8099/12).
(11) ـ.فيها قراءات يراجع لها كتاب: "النشر في القراءات العشر" لابن الجزري (319/2).
(12) ـ.الطبري، "جامع البيان"، مصدر سابق، (695/23)، والزجاج، "معاني القرآن"، مصدر سابق، (243/5).
(13) ـ.الطبري، "جامع البيان"، مصدر سابق، (507/23)، ابن الجوزي، "زاد المسير"، مصدر سابق، (314/4)، القرطبي، محمد بن أحمد، 1384هـ- 1964 م "الجامع لأحكام القرآن"، ت البر دوني وأطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، (209/18).
(14) ـ.أخرجه البخاري (1292، 1319)، ومسلم (6849)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(15) ـ.أخرجه البخاري (6640،)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
(16) ـ.حديث حسن أخرجه أبو داود (418)، وغيره من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.
(17) ـ.أخرجه البخاري (244، 5956)، ومسلم (6981)، واللفظ له، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(18) ـ.أخرجه مسلم (776) وغيره من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(19) ـ.أخرجه البخاري (5550)، ومسلم (518)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(20) ـ. أخرجه البخاري (3674)، ومسلم (330)، واللفظ له، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(21) ـ.يجدر بالباحثين استجماعها، وتأمل دلالاتها، ضمن بحث في الحديث الموضوعي.
(22) ـ.انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، 1419هـ - 1999م "تأويل مختلف الحديث"، المكتب الإسلامي ومؤسسة الإشراق، ط2 (200). البغوي، الحسين بن مسعود، 1403هـ - 1983م "شرح السنة"، ت شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط2، (157/1- 158). وابن كثير إسماعيل، 1420هـ- 1999م "تفسير القرآن العظيم" ت سامي سلامة، دار طيبة، ط2، (453/3).

(23) ـ قال ابن عبد البر: «وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل قد أجمعوا ... على أن قالوا فطرة الله دين الله الإسلام» "التمهيد" ت مصطفى العلوي ، محمد البكري، وزارة عموم الأوقاف المغرب، (72/18)، ونسبه لأبي هريرة رضي الله عنه والزهري رحمه الله، وكذا القرطبي في "الجامع" (25/14)، وذكره البغوي في "شرح السنة" (160/1)، وابن كثير في "التفسير" (314/6)، وابن حجر في "فتح الباري" إ محب الدين الخطيب، دار المعرفة، (248/3).

(24) ـ.النووي، يحيى بن شرف، "المجموع شرح المهذب"، دار الفكر، (284/1)، ومقصوده الفطرة في حديث خصال الفطرة المعروف.

(25) ـ.الخطابي، حمد بن محمد، 1409هـ- 1988م "أعلام الحديث"، ت محمد بن سعد آل سعود، جامعة أم القرى، ط1 (716/1). ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، 1421هـ- 2000م "الاستذكار"، ت سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، ط1، (101/3). وابن عطية، 1413هـ- 1993م "المحرر الوجيز"، ت عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، (336/4). القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، مصدر سابق، (28/14). و المناوي، "التوقيف على مهمات التعاريف"، (262).

(26) ـ. يقول الشنقيطي رحمه الله: « والعقل ... محله القلب كما نص عليه الكتاب والسنة ... لأن الله يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج:46]، ... ويقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق]» انظر: "مجالس مع محمد الأمين الشنقيطي"، لأحمد بن محمد الشنقيطي، (244- 245).

وقد جاء في القرآن الكريم من أحوال القلوب وأوصافها ما يعلم منه يقينا أنها محل الإدراك، منها: أن الله يعلم ما فيها، ويمتحنها للتقوى، وهو شاهد عليها، ويربط عليها، ويهديها، وجعل فيها الرحمة والرأفة، ويؤلف بينها، ويذهب غيظها، ويشد عليها، ويمحصها، ويقلبها كيف يشاء. وهي محل الخير وعدمه، ومحل التقوى، ومحل الإيمان، فيزينه الله فيها، ومحل نزول الطمأنينة، والسكينة، فتطمئن بذكر الله، ومحل الذكرى، وتدبر القرآن والفقه، ...وتتبع هذه الأوصاف وأضدادها يخرج البحث عن مضمونه، لكن يشير إلى أهمية القلوب، وأنها محل كل أمر، فلا شك أنها محل فطرة الله في خلقه.

(27) ـ.ففي الحديث: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» أخرجه البخاري (52، 1946) وغيره.

(28) ـ.ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، مصدر سابق، (194/1).

(29) ـ.ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، أحمد بن عبد الحليم، 1416هـ- 1995م "مجموع الفتاوى"، ت عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد، (245/4- 247).

(30) ـ قال سبحانه:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى:52]، فالوحي الشرعي من أمر الله، وقال في غير ما آية ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [يونس:40]. أي الكوني، ومثله قوله سبحانه: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:25].

(31) ـ.ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، مصدر سابق، (32/4).

(32) ـ.ابن القيم، محمد بن أبي بكر ، 1405هـ- 1985م "الوابل الصيب"، ت محمد معوض، دار الكتاب العربي، ط1، (72).

(33) ـ. ابن القيم، "الوابل الصيب"، مصدر سابق، (72). ومثله قوله ابن تيمية رحمه الله: « وَلَا بُد لهَذِهِ الْفطْرَة والخلقة وَهِي صِحَة الْخلقَة من قوت وغذاء يمدها بنظير مَا فِيهَا مِمَّا فطرت عَلَيْهِ علما وَعَملا وَلِهَذَا كَانَ تَمام الدّين بالفطرة المكملة بالشريعة الْمنزلَة ...». "أمراض القلوب"، (32). وانظر: أحمد بن عبد الحليم، 1419هـ - 1999م "اقتضاء الصراط المستقيم"، ت ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، ط7، (448/1).

(34) ـ.ابن تيمية، بن عبد الحليم، 1399هـ "أمراض القلوب"، المطبعة السلفية، ط2، (26). و1399هـ "الرسالة العرشية"، المطبعة السلفية، ط1، (31). و1420هـ- 2000م "النبوات"، ت عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، ط1، (1091/2).

(35) ـ. مستفاد من شرح ابن القيم رحمه الله في، "إغاثة اللهفان"، ت محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض (107) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الفطرة، قال: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع...فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة».

(36) ـ.ابن قتيبة، "غريب القرآن"، مصدر سابق، (291). وفي "الكليات" «فَإِن الْفطْرَة تَقْتَضِي فِي كل مَا نظر إِلَيْهِ الْإِنْسَان أَنه تَعَالَى مَوْجُود» (593).

(37) ـ.كلاهما بمعنى الخضوع والافتقار والانكسار والشعور بالحاجة لله رب العالمين، الواحد الصمد، انظر: ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، مصدر سابق، (345/2، 205/4).

(38) ـ.مكي القيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، مصدر سابق، (2405/4).

(39) ـ.الواحدي، علي بن أحمد، 1430هـ ، "البسيط"، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1 (178/9).

(40) ـ.وهو قول البصريين في مدلول لام ﴿ لِيَعْبُدُواْ ﴾، انظر: أبو جعفر النحاس، أحمد بن محمد، 1421هـ "إعراب القرآن"، دار الكتب العلمية، ط1،، (169/5).

(41) ـ.ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، 1419هـ- 1999م "الجواب الصحيح"، ت علي بن حسن وآخرون، دار العاصمة، ط2، (283/6).

(42) ـ.ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، مصدر سابق، (96/19).

(43) ـ.وهو الصحيح التي تدل عليه النصوص من القرآن والسنة، انظر: القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، مصدر سابق، (232/7).

(44) ـ.ابن تيمية، "اقتضاء الصراط المستقيم"، مصدر سابق، (160).

(45) ـ.يقول ابن القيم رحمه الله: « أصل الْأَخْلَاق المذمومة كلهَا الْكبر والمهانة والدناءة وأصل الْأَخْلَاق المحمودة كلهَا الْخُشُوع وعلو الهمة » "الفوائد" 1393هـ- 1973م، دار الكتب العلمية، ط2، (143)، ثم فصل ذلك بذكر جملة من الأخلاق الصالحة والطالحة وبيان رجوعها إلى هذه الأصول.

(46) ـ.أخرجه البخاري في "الأدب المفرد"(273)، وأحمد في "المسند" (8951)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح.

(47) ـ.ابن هشام، "السيرة النبوية"، (336/1).

(48) ـ.أخرجه البخاري (2535) بهذا اللفظ، وأخرجه في مواضع أخرى بنحوه.

(49) ـ.أخرجه أحمد في "المسند" (25302)، من حديث عائشة رضي الله عنها بسند على صحيح شرط الشيخين.

(50) ـ.«كالصبر والشجاعة وَالْعدْل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم وَالْعَفو والصفح وَالِاحْتِمَال والإيثار وَعزة النَّفس عَن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الْإِحْسَان بِمثلِهِ أَو أفضل والتغافل عَن زلات النَّاس وَترك الانشغال بِمَا لَا يعنيه وسلامة الْقلب من الْأَخْلَاق المذمومة» ابن القيم، "الفوائد"، (143).

(51) ـ.وقد أحسن غاية الإحسان، جمعا، وتقسيما، وترتيبا، محمد عبد الله دراز في كتابه "دستور أخلاق القرآن"، فراجعه.

(52) ـ.ابن القيم، "الفوائد"، مصدر سابق، (139) وما بعدها.

(53) ـ.انظر: ابن عطية، "المحرر الوجيز"، مصدر سابق، (415/3- 416). وابن الجوزي، "زاد المسير"، مصدر سابق، (579/2).

(54) ـ.الكفوي، أيوب بن موسى ، "الكليات"، عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، (697).

(55) ـ. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، 1418 هـ "التفسير المنير"، دار الفكر المعاصر دمشق، ط2، (306/30).

(56) ـ ورد في بعض الآثار أنها خمس وفي بعضها أنها عشر: «إعفاء اللحية، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وتقليم

الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، والاستحداد، والاختتان، والانتضاح»» وزيد في بعضها «المضمضة» بدل «إعفاء اللحية». والأحاديث متظافرة في الدلالة على ذلك يدل مجموعها على صحتها، منها:

حديث الخمس: عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (5550، 5552)، ومسلم (518).

وحديث العشر: عن عائشة رضي الله عنها عند مسلم (525) وغيره، والصواب وقفه. ويشهد له حديث ابن عمر رضي الله عنه عند البخاري (5890)، وأحمد (5988) وغيرهما، وحديث عمار ابن ياسر عند أحمد (18327)، بسند حسن.

وهذه الخصال تكمل مظهر العبد وتجمله، وقد اختُلف في استحبابها ووجوبها، ومن جميل ما قيل قول ابن العربي رحمه الله في "القبس" قال: «والذي عندي إن جَميعها واجبٌ وأن الرجل لو تركها لم يكن من جملة الآدميين، فكيفَ من جملةِ المسلمين» (1108)، وانظر: الخطابي، حمد بن محمد، 1351هـ- 1932م "معالم السنن"، المطبعة العلمية حلب، ط1، (31/1).

"الإيجاز شرح سنن أبي داود" للنووي (234)، و"فتح الباري" لابن حجر مصدر سابق، (334/10- 351).

(57) _.قال الواحدي: «تمنعكم الحرَّ والبرد فترك ذكر البرد لأنَّ ما وقى الحرَّ وقى البرد...وتمنعكم...شدَّة الطَّعْن والضَّرب والرَّمي» "الوجيز" (615).

(58) _.وهبة الزحيلي، "التفسير المنير"، مصدر سابق، (166/8).

(59) _.عبد الكريم النملة، "المهذب في أصول الفقه المقارن"، (323/1).

(60) _.الزمخشري، محمود بن عمرو،1407هـ "الكشاف"، دار الكتاب العربي، ط3، (651/2).

(61) _. الطريفي، عبد العزيز ، 1436هـ- 2015م "الحجاب في الشرع والفطرة"، دار المنهاج، ط1، (17).

(62) _.ابن القيم، "إغاثة اللهفان"، مصدر سابق، (107/1).

(63) _ ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، مصدر سابق، (296/14).

(64) _ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، 1422هـ "الإيمان الأوسط"، ت محمود أبو سن، دار طيبة للنشر، ط1، (76).

(65) _ انظر هذه المعاني عند الطاهر ابن عاشور في "التحرير والتنوير"، (8-ب/59- 60).

(66) _.عبد العزيز الطريفي، "الحجاب في الشرع والفطرة"، مصدر سابق، (22).

(67) _.الطريفي، "الحجاب في الشرع والفطرة"، مصدر سابق، (22).

(68) _.الطريفي، "الحجاب في الشرع والفطرة"، مصدر سابق، (24). بتصرف.

(69) _.الطريفي، "الحجاب في الشرع والفطرة"، مصدر سابق، (12- 22).

(70) _.الطريفي، "الحجاب في الشرع والفطرة"، مصدر سابق، (23).

(71) _.محمد رشيد رضا، 1990م، "تفسير المنار"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (358/9- 359).

(72) _.أخرجه البخاري (3276)، ومسلم (214).

(73) _.أخرج هذه الرواية: النسائي في "عمل اليوم والليلة" (662)، وأبو نعيم في "المستخرج" (343)، وغيرهما.

(74) _.أخرجه مسلم (7309)، وغيره.

(75) _.أخرجه البخاري (4920)، وغيره.

(76) _.أخرجه البخاري (2886)، وغيره.

(77) _.أخرجه البخاري (59)، وغيره.

(78) _. ابن هشام، عبد الله بن يوسف، 1375هـ- 1955م "السيرة النبوية"، ت مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، (480/1- 482).

(79) _.محمد رشيد رضا، "تفسير المنار"، مصدر سابق، (358/9- 359).